الموسيقى في الإسلام

بقلم محمد السيد الوكيل

يزعم بعض الناس أن الموسيقى محرّمة، لأنها تلهى الإنسان عن ربه، وتشغله عن دينه وعبادته، وتدفعه دفعاً لارتكاب مانهى الله عنه. فإذا سألتهم آية أو حديثاً قالوا: هذا شئ معروف منقول سمعناه من آبائنا وأجدادنا والسلف الصالح ...!

هذا زعم لم ينشأ أيام النبي صلى الله عليه وسلم ولا أيام الخلفاء الراشدين، وإنما نشأ أيام الدولة الأموية حينما سما مركز المغنين والقيان سمواً عظيماً حتى حجب مراكز العلماء والفقهاء الذين حقدوا على الموسيقى والموسيقيين حقداً كبيراً، واستساموا لخواطرهم (وهم بشر!) فراحوا يذيعون بين الناس أن الموسيقى حرام، وأن الخلفاء قد نسوا دينهم وربهم، واتبعوا خطوات الشيطان ...!

ومن هنا نشأت هذه الشائعات وتطورت حتى غدت على ممر الأيام والأعوام قريبة من الاعتقاد والإيمان ...

ولإنصاف بعض رجال الدين في هذا الوقت نقول: إنهم أبوا أن يتخذ بعض إخوانهم — في العلم — الدين سلاحاً للتشفي والانتقام من فن رفيع سام يخفف عن الناس آلامهم وشقاءهم فأصدروا الكتب الكثيرة في الرد على مبتدعي التحريم. ولعل أشهر هذه الرسائل وأقواها وأدعمها حجة تلك الرسالة (الخطية) الوحيدة الموجودة الآن (ببرلين) ... (الاستمتاع في الرد على من يحرم السماع ...!)

قبل أن أذكر شيئاً عن الموسيقى في صدر الإسلام وفي أيام النبي (ص) أحب أن أذكر شيئاً عن حياة العربي وطبيعة بلاده، وتأثير مناخه في نفسه ليرى القارئ معي أن العربي موسيقي بطبعه وفطرته

البيئة العربية خالية مما يسر العين ويرضي القلب، فالصحراء شاسعة مترامية موحشة مقفرة لا حياة فيها، ولا أنس يُحييها. والسماء بنجومها وقمرها ... هي السماء بنجومها وقمرها (دائماً) لا تتغير ولا تتبدل ...!

فأي شيء يسد هذا الفراغ ... ويشغل نفس العربي ويملأ حسه غير (الغناء) الذي يساعد عليه رقة الشعر وسلامة قوافيه واختلاف بحوره؟ أي شيء يساعد الإبل والحداة على السير تحت الشمس المحرقة، وفوق الرمال الملتهبة التقدة أياماً وأياماً بالعطش والجوع غير الغناء الذي ينسي الإنسان همومه، ويمسح دموعه؟

عرف العربي الترنم بالشعر ولم يكن يدري أن هذا اللون من ألوان الموسيقى صناعة تخضع لقانون معين فاستمر هكذا يغني ويشرب الخمر، ويتغزل بالحب، ويكلف بالصيد والميسر حتى استطاعت القيان التي استقدمت من بلاد العجم والروم بآلاتهن الموسيقية الفارسية والرومية أن يؤثرن في الموسيقى العربية تأثيراً كبيراً.

فنشط العرب في هذا المضمار نشاطاً عظيماً، وإن كان هذا النشاط قد حجبه الكبرياء والتعالي، إلا أن حب الفن تغلب على غطرسة العربي فنهض واستحدث حتى احتفظ لموسيقاه بطابعها العربي الذي ميزها عن غيرها ولا يزال ...!!

وقد عرف العرب في الجاهلية وصدر الإسلام من الآلات الوترية (المزهر) وهو عود ذو وجه من الرق (والعود) ذا الوجه الخشبي (والجنك) أو الصنج (الهارب) (والمعزف) (والوتر)

ومن آلات النفخ المزمار، والقصبة أو القُصّابة، والشبّابة، والصُّور، والناي. ومن آلات النقر: الطبل، والدف، والقضيب — لبيان الميزان أو الإيقاع — والصنوج والجلاجل، والمربع والمجنب!!

انحصر جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم في الذود عن دينه وتبليغ رسالته، ونشر دعوته، وقتال المشركين ممن آذوه

وأصحابه فى أرواحهم وأموالهم ونسائهم ، ولكن هذا لا يمنع أنه صلى الله عليه وسلم كان يحب الموسيقى . فقد كان كلا (هادن) سمع من بلال ابن رباح الحبشى ، أول موسيقى مسلم ، وأول مؤذن فى الإسلام ، ترتيله وأذانه بصوت جميل ، وبتوقيع وترتيل فنى .

ولقد جاءته مرة عائشة رضى الله عنها وقالت: يارسول الله، لقد أقسمت شيرين مولاة حسان بن ثابت إن رجعت منصوراً من غزوتك أن تغنى وتضرب بالرق فى بيتنا ، فماذا ترى . ؟

فابتسم المصطفى وأذن لها وجلس مع حشد من صحابته وفيهم صديقه أبو بكر يسمع شيرين وهى تغنى وتضرب بالرق، واستمروا كذلك حتى قدم عمر بن الخطاب فانكمشت شيرين وجلست فوق (رقها) فضحك الرسول وقال :

لقد ذهب شيطانها لما رأى عمر .

فأجابت شيرين : كلا يارسول الله ولكنه قاس لا يرحم وأنت كريم رحيم !

فضحكوا جميعاً حتى عمر .

ولقد اتسمت فتوح العرب أيام عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين وانتفع العرب بمدنيات البلاد المغلوبة وحضارتهم ولا سيما الحضارتين الفارسية واليونانية، فتأثر العرب من اختلاطهم بهؤلاء الأسرى واهتموا بأمور دنياهم ، وأصبحوا ينظرون إلى الموسيقى نظرة جديدة خالية من الغلو والشطط حتى ارتفعوا بها على الشعر والأدب ، وحتى غدوا لا يرون بأساً ولا ملامة فى أن يحضروا مجالسها. وقد كان حسان بن ثابت رضى الله عنه يسمع من مولاته شيرين ومن رائقة سيدة المغنيات وقتئذ وتلميذتها عزة الميلاء وكذلك كان حال أشراف العرب وساداتهم ... !

وأحسب أن عصر ابتداء النهضة الحق ابتدأ فى خلافة على كرم الله وجهه . ولعل حبه للشعر وهو لون من ألوان (الفن) أكبر حافز على أن هذه النهضة لم تؤت ثمرها اليانع إلا فى الدولة الأموية عند ما اتسعت الفتوحات شرقاً وغرباً . وقد ابتدئ فى وضع الألحان العربية فى هذا العصر على إيقاعات متعددة، وورد فى غنائه ذكر إيقاعات (الثقيل) الأول و (الثقيل) الثانى ، وخفيف الثقيل ، والهزج ، والرمل

وأشهر الموسيقيين فى هذا العصر هو (سائب خاثر) ، وهو أول من غنى فى المدينة بالعربية مستعملاً العود . وقد أخذ عنه ابن سريج ، ومعبد ، وعزة الميلاء ، وجميلة !

ومن المشهورين أيضاً ابن مسجح أول من نقل غناء الفرس إلى غناء العرب بمكة . وقد ابتدع مذهباً خاصاً وطريقة جديدة تأثر بها وأخذ عنها ابن محرز ومعبد وابن سريج والغريض

وقد بلغ من اهتمام الأمراء والحكام بالموسيقى أن الخليفة عبد الملك بن مروان نفسه كان موسيقيًّا وملحناً . وقد اشترى يزيد بن عبد الملك (حبابة) المغنية بأربعة آلاف دينار مع أنها كانت دميمة متهدمة ...

ولعل فى رعاية الوليد بن يزيد لمعبد وتمريضه إياه وإخلاء جناح خاص له فى قصره ، ثم تشييعه لجنازته بنفسه أكبر برهان على مكانة الموسيقى وقتئذ . وقد كان الوليد عالماً بصناعة الألحان عازفاً بالعود موقعاً بالطبل والدف

وقد سرى تيار هذا الاهتمام إلى الأشراف والنبلاء حتى أن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب كان لا يستريح إلا إذا سمع (سائب خاثر) فينشط . وسكينة بنت الحسين رضى الله عنها وعن أبيها ، كانت مشغوفة بالغناء والموسيقى ، وكانت تكرم الغريض ، وكان بيتها منتدى لسماع الموسيقى والغناء ، وقد طُلِب منها مرة أن تستدعى (حنين الحيرى) مُغنِّى (الحيرة) ، فاستدعته مع أشهر المغنين فى الحجاز ابن سريج ، ومعبد ، والغريض . وقصد الأربعة بيتها فحفلت الدار بالناس حتى ضاقت بهم ، فصعدت شراذم منهم فوق (السطح) وأخذ حنين يغنى ويغنى والناس تموج وتهتف ، وإذا (بالسقف) يهوى بمن فوقه على رأسه فمات مخنوقاً . فقالت السيدة سكينة : « لقد كدر علينا حنين سرورنا . انتظرناه مدة طويلة كأننا والله كنا نسوقه إلى منيته »

وفى العصر الأموى ابتدأت حركة التأليف الموسيقى فوضع يونس الكاتب (كتاب النغم) و (كيان الغيان)

أما فى العصر العباسى ذلك العصر الذهبى للموسيقى والأدب والشعر فقد سمت فيه الموسيقى سمواً عظيما وارتفعت إلى ذروة المجد ، وزادت مقاماتها وطرائق إيقاعها حتى تعددت فى اللحن الواحد وكثرت الآلات وتنوعت وكثر استعمالها

وأصبح العربى يفخر بأنه موسيقى حتى أن أبناء النبلاء

انخرطوا فى سلكها ، فكان منهم ابن جامع الترشى . بل زاد اهتمامهم إلى حد الاحتراف كإبراهيم بن المهدى . . !

والخليفة الواثق كان من أحذق الخلفاء بل من الموسيقيين المحترفين أنفسهم بالغناء والعزف على العود ، وقد قال فى إسحاق الموصلى :

(ما غنانى إسحاق قط إلا ظننت أنه قد زيد لى فى ملكى .. وإن إسحاق لنغمته من نغم الملك التى لم يحظ بمثلها ، ولو أن العمر والشباب والنشاط مما يشترى لاشتريتهن له بشطر ملكى) (الأغانى) وإسحاق هذا هو أول من عنى بإثبات قواعد الموسيقى العربية ونظرياتها بعد يونس الأكوى وجاء بعده الخليل بن احمد فصنف كتاب (النغم والإيقاع) ولكن الذى بزهما هو إسحاق ابن يعقوب الكندى الذى ألف عدة كتب فى الموسيقى ونظرياتها ؛ وهو أول من دون الموسيقى بالحروف بشكل مرتب ، وهذا أكبر رد على من يتهمون العرب بإهمال تدوين تلاحينهم . ثم جاء بعده أيضاً أبو نصر محمد الفارابى فوضع (كتاب الموسيقى الكبير) الذى تدين له الموسيقى بالشىء الكثير . وفى العصر العباسى أمر هارون الرشيد اسحق الموصلى ، واسماعيل ابن جامع ، وفليح ابن أبى العوراء ، أن يختاروا له من الألحان العربية مائة صوت فصنعوا .

ومن أشهر الموسيقين فى هذا العصر إبراهيم الموصلى ، وإسحاق الموصلى ، وفليح بن أبى العوراء ، ويحيى المكى ، وحكم الوادى ، وزلزل ، ومخارق ، وبذل الفنية ، وابن جامع

وقبل أن نختم هذه اللمحة العابرة نحب أن نقول لهؤلاء الذين يعتقدون أن الموسيقى محرمة : هذا هو شأن الموسيقى فى صدر الإسلام

إن الموسيقى فى ذاتها نبيلة رفيعة ، ولكن المحرم فيها هو التخنث والبكاء والاسترضاء واستغلال الغرائز البهيمية ، وهذا ليس بمحرم شرعاً فحسب ، بل هو محرم شرعاً وذوقاً ورجولة أيضاً

محمد السيد المرياطى

المراجع : مقدمة الدكتور محمود احمد الحفنى .. الأغانى للأصفهانى

القوة المغناطيسية ومعجزاتها السحرية

إن بك قوة خفية هائلة يمكنك بمقتضاها أن تعمل المعجزات إذا تعلمت كيف تستخدمها فى حياتك على الوجه الفنى الصحيح

إن أردت أن تحرز التنويم المغناطيسى وتصبح منوماً بارعاً

وتعالج وتؤثر بالمغناطيس على من يريد ، عن قرب وعن بعد ، وتحصل على دبلوم هذا الفن

(١) تستبدل مرضك بصحة وبؤسك بسعادة وفشلك بنجاح (٢) وتستغل مواهبك وتستخدم قواك المغناطيسية لتذلل عقبات الحياة وتسيطر بها على الطبيعة وتؤثر بها على من حولك فى حالة البيع والشراء والخطابة وتصبح ذا شخصية بارزة وتحقق كل أمل تنشده (٣) إن أردت التخلص من العادات الضارة كشرب الدخان والادمان على المخدرات ولعب الميسر والنورستانيا والهستريا (٤) ومعالجة أمراضك العقلية والاضطرابات النفسية والعصبية . الخوف . الوهم . الكآبة . الوسواس . الأرق . التلعثم (اللجلجة) الإمساك المزمن . النحافة . السمنة . ضعف الذاكرة والإرادة (٥) وإن كنت محامياً أو خطيباً أو ممثلاً أو واعظاً وتريد أن تكون موضع ثقة وتخرج كلامك مشبعاً بالتيار المغناطيسى أو أردت معرفة مستقبل أمورك (٦) وإن كان لك حاجة عند شخص تريد التأثير عليه عن بعد فاستخدم قواك الخفية التى سندربك على استعمالها واكتب إلينا حالاً فنرسل إليك تعليماتنا مجاناً بالبريد ، فقط أرفق ١٥ مليما طوابع بوسته واطلبها من:

(الأستاذ الدكتور نورا) مدير معهد الشرق لعلم النفس بميدان غمرة ٧١٩ شارع الخليج المصرى بمصر

{ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع البيروتى — عابدين }